

هارولد لاسكى: تأملات فى ثورة العصر

Reflection son the Revolution of our Time

قدم لنا الفكر السياسى الإنجائزى فريقين من الفلاسفة السياسيين، فريق تفرغ للبحث والتدريس والكتابة مثل سير أرنست بيكر وبروفسور هـ . تونى ، وفئة ثانية جمعت بين البحث الأكاديمى والممارسة العملية للسياسة مثل جراهام دالاس وجون ستراشى . ومن بين أعلام الفريق الأخير هارولد لاسكى . فقد ظل الأستاذ لاسكى يقوم بالتدريس فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بلندن وغيرها قرابة ثلاثين عاما، منذ سنة ١٩٢٠ حتى وفاته سنة ١٩٥٠ ، كما ظل فترة طويلة عضوا فى جماعة « الغايين » ثم عضوا فى اللجنة التنفيذية لحزب العمال ، وكان رئيسا لها عند ما تولى حزب العمال الحكم فى سنة ١٩٤٥ حتى إن الكثيرين كانوا يعتقدون أنه الزعيم الحقيقى للحزب ، وأصدر عشرات الكتب والمقالات والنشرات دفاعاً عن مبادئ الحزب ودعوة له . فلاسكى مزيج فريد من الفلاسوف السياسى والأستاذ والداعية وعضو الحزب يجمع بينهما جميعا فى نشاط لم يفتر حتى مات .

ولعل كتبه الثلاثة « قواعد السياسة » سنة ١٩٢٥ و « الديمقراطية فى محنة » سنة ١٩٣٣ و « تأملات فى ثورة العصر » سنة ١٩٤٣ هى أهم ما كتبه ، إذ أن كلا منها يمثل بداية مرحلة من مراحل تطوره الفكرى . وذلك أن لاسكى كان فى الفترة الأولى من حياته الأكاديمية يؤمن بالمبادئ الغائية ودعوتها إلى التغيير التدريجى « gradualism » ويبدو ذلك بوضوح فى كتابه « قواعد السياسة » المشار إليه ، ثم تحول عنها إلى اليسارية المتطرفة حوالى سنة ١٩٣٠ وكان أول مؤلف كبير له ظهر فيه هذا التحول هو كتابه الثانى « الديمقراطية فى محنة » الذى بدأ يدافع فيه عما أسماه

التجربة الاشتراكية في روسيا ، ويشيد بالنظرية الماركسية ذاهباً إلى أنها في مجموعها خير محاولة للإصلاح الجذري الذي يتطلبه العصر ، ولو أنه لم يؤيدها على طول الخط فقد وجه سهام نقده إلى نقطة أساسية في النظرية وهي ما تذهب إليه الماركسية من ضرورة العنف في مرحلة الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية ، وهو يقول في ذلك إنه لا مكان للأمن والطمأنينة والحرية في ظل أى نظام يتطلب من الناس إيماناً به إلى حد اعتباره في ذاته مبرراً كافياً لاستعمال العنف ؛ ولعل اتجاهه هذا في نقد النظرية الماركسية أثر من آثار التدريبية الغائية التي كان يؤمن بها من قبل . كما اعترض لاسكى على المادية التاريخية لنزعتها « العقلية » المغالى فيها ولتجاهلها أن هناك عوامل أخرى لها في توجيه النشاط الإنساني أثر يفوق أثر العوامل الاقتصادية ، بيد أنه يتفق مع الماركسية في أن النظام الاقتصادي السائد في مجتمع ما هو العامل الرئيسي في تحديد صورة الحكم فيه وأن الفئة التي لا بد أن تسيطر في ظل الرأسمالية ، بناء على ذلك ، هي الفئة التي تتحكم في تكييف علاقات الإنتاج ومن ثم تستطيع أن تحصل على قدر من القوة السياسية يكفي لتوجيه سياسة المجتمع كله .

وجاءت المرحلة الثالثة في التطور الفكري عند لاسكى بعد قيام الحرب العالمية الثانية وتعرض إنجلترا لهزيمة تقضى على أسس مدنيها وتقاليدها السياسية فبدأ يدافع عن هذه التقاليد ويشيد بالروح الديمقراطية المتأصلة في الشعب الإنجليزي ويوجه إلى الفاشية هجوماً لا هوادة فيه ، كما يبدو في كتابه « تأملات في ثورة العصر » الذي نحن بصددده ؛ كما كان لاعتداء روسيا النازية على فنلندا في أوائل الحرب رد فعل سيء عند لاسكى ظهر صده في كتابه في شدة نقده لحكام روسيا كما سيحيى في حينه .

والكتاب نفسه ، الذي يقول لاسكى إنه بدأه في الشهر الثاني من الحرب العالمية الثانية عند ما بدأ البرلمان البريطاني يناقش تقرير « بفريدج » عن الخدمات الاجتماعية ، وانتهى منه في نوفمبر سنة ١٩٤٢ ، ظهر في أوائل سنة ١٩٤٣ . وهو يدور حول رأى المؤلف عن المرحلة التي تمر بها المدينة الغربية في الوقت الحاضر . نتيجة لواقع اقتصادي

أدى بصورة حتمية إلى أن أصبحت علاقات الإنتاج الحاضرة لا تسمح بأية صورة من الصور بالإنتاج التوسعي في ظل الرأسمالية ، حيث إن الرغبة في الكسب ، وهي الحافز الرئيسي في ظل نظام الملكية الخاصة ، لابد أن تتحكم في كمية الإنتاج ونوعه دون وزن لحاجات المجتمع في مجموعه . ومن ثم لابد من تغيير هذه العلاقات التي تتضمن في جوهرها تمتع فئة قليلة بميزات تمنحها قوة اقتصادية، وبالتالي قوة سياسية، لا تتفق مطلقاً مع نسبتها العددية في المجتمع. ولما كانت هذه الفئة المتميزة غير مستعدة لأن تتنازل عن امتيازاتها فإنها تصم أذنيها عن صوت العقل والمنطق والواقع وتلجأ إلى جميع الوسائل للمحافظة على الوضع القائم فيما يتعلق بالمصدر الأساسي لهذه الامتيازات وهي الملكية الخاصة في وسائل الإنتاج وما يتبعها من سيطرة على الائتمان . وهكذا فإن التغيير المنشود لابد أن يأخذ صورة الثورة التي قد تتسم بالعنف وتكون صراعاً دائماً ، كما حدث في روسيا، أو قد تتم بوسائل سلمية كما تنبأ ماركس بما سيقع في إنجلترا .

ويصف لنا لاسكي هذه المرحلة من التغيير في الفصل الأول من كتابه تحت عنوان « نبذة عن روح العصر » بأنها تغيير ثوري لا يقل عمقا عن أي تغيير آخر في تاريخ الجنس البشري الحديث ولا يقل في جوهره ومغزاه عن التغيير الذي شهد سقوط الأباطورية الرومانية أو مولد المجتمع الرأسمالي وحركة الإصلاح الديني . وهذا التغيير حتمي تكمن حتميته وطبيعته في كل ما يتكوّن منه طابع مجتمعا . ثم يستعرض لاسكي بعد ذلك الآراء المختلفة والأسباب التي سبقت في تعليل هذا الوضع ، من سياسية واجتماعية ونقص في نظم التربية وانكماش في سيطرة القانون ، ويستبعد أن يكون أيّاً منها وحده هو العلة ، ولكنها جميعاً أدت مشتركة إلى قيامه . بيد أن من بين هذه الآراء رأياً يعزو المحنة التي يمر بها العالم والسبب في ضرورة التغيير إلى زيادة تدخل الدولة في مختلف قطاعات النشاط القومي ، وخاصة في القطاع الاقتصادي ، ويرى في سياسة عدم التدخل « Laissez faire » علاجاً للموقف وأساساً صالحاً

لمجتمع يتطور تبعاً لمقتضيات حاجاته وظروفه ؛ ويهاجم لاسكى هذا الرأى بشدة فى كتابه. ولا غرو فهو اشتراكى عتيد يطالب بزيادة تدخل الدولة لصالح الطبقة العاملة؛ وهو يقول بصراحة فى هذا الصدد إن الدولة ليست عاملاً محايداً لخدمة المجتمع كله ، بل هى سلاح يستعمل فى خدمة الطبقة التى تجعل سيطرتها على وسائل الإنتاج فى وضع يمكنها من استغلال إمكانيات الدولة لخدمة مصالحها الخاصة .

ثم ينحصر الجزء الأكبر من بقية الفصل الأول لشرح سمات العصر الذى نعيش فيه من انتشار للخوف والقلق وعدم الطمأنينة مما يقضى على كل أمل فى التفاهم بين الفئات المختلفة فى المجتمع . وينتهى إلى أن البشر يواجهون الحاجة إلى تغيير جذرى فى روح الحكم كلها ، وإن هذا التغيير إما أن يحدث بتعاون من جانب أولئك الذين يحكمون الآن ، أو تؤدى الوقائع الموضوعية حتماً إلى تغيير عنيف من أسس المجتمع الذى يحكمونه . وهو يستنكر الرأى القائل بأن نبد الديمقراطية بوصفها إطاراً للدولة يحل أى مشكلة من المشاكل التى يتعرض لها حالياً الجنس البشرى ، بل إن ذلك ، فيما يرى يزيد هذه المشاكل حدة حيث إن نبد الديمقراطية يؤدى إلى إنكار المناقشة الحرة ، وهذا يؤدى بدوره إلى القضاء على الروح التى يتطلبها الكشف العلمى الذى يعد شرطاً لا بد منه لبقاء أى مجتمع حديث .

ويناقش لاسكى فى الفصل الثانى من كتابه الثورة الروسية التى يقول عنها أنها تمثل فى علاقاتها التاريخية بالقرون العشرين نفس وضع الثورة الفرنسية بالنسبة للقرون التاسع عشر . وهو يذهب إلى أن العالم يمر الآن بفترة من رد الفعل لا يديولوجية الثورة الروسية مما يجعل قدرتنا على الحكم عليها دون تحيز تشوبها العواطف والانفعالات التى أثارها هذه الثورة . فالناس حيالها فريقان ، فريق يرى مزاياها من الضخامة بحيث لا يستطيعون حتى مجرد التفكير فى الثمن الذى اقتضته ، وفريق هاله الثمن البشع الذى دفعته البشرية فى سبيل تحقيق هذه الثورة فلم يعد يقبل أية مناقشة فى مزاياها. ويتهم لاسكى الفريقين بالتطرف والغباء. فالفريقان ينظران إلى الثورة الروسية

في ذاتها بوصفها حدثاً قام به الروس وحدهم ونسى الناس أن كل حركة الأفكار التي نسميها التاريخ «الحديث» ساهمت في وقوعها ، إذ ما كانت هذه الثورة لتم ، في نظره لولا الثورة العلمية التي قامت في القرنين السادس عشر والسابع عشر ولولا أيضاً الثورة الصناعية التي حدثت في القرن التاسع عشر ، كما أن جميع الأفكار والمثل التي أتى بها مفكرون من أمثال هوبز وروسو وهيغل والاشتراكيون المختلفون من برودون إلى ماركس ساهمت في تهيئة الجو لوقوعها بالصورة التي وقعت بها . ويقول لاسكي إن نجاح الشيوعيين في الاستيلاء على السلطة واحتفاظهم بها يرجع إلى أسباب أهمها إدراكهم وفهمهم العميق لحاجات الناس الذين تحت سيطرتهم والعمل الحاسم على إجابة الرغبات الحقيقية لهؤلاء الناس ؛ وكذلك التدخل الأجنبي الذي استغله زعماء الشيوعية إلى أقصى حد في إثارة المشاعر الحماسية لدى مواطنيهم وتكثيلهم للعمل السريع في بناء نظامهم ، رغم أن الرصيد الكبير من الشعور الطيب نحو الثورة الشيوعية بين الطبقات العاملة في مختلف أنحاء العالم جعل هذا التدخل أضعف من أن يقضي حقيقة على النظام الجديد .

ورغم إعجاب لاسكي الصريح بما حققته الثورة الروسية، وخاصة تحت زعامة لينين ، والتماسه المأذير لشتى نقائصها ، ما يعترف به منها ، فإنه عندما يتعرض لغزو ستالين لفنلندا يتحول إلى هجوم شديد على زعماء روسيا السوفيتية ناعثاً الاعتداء السوفيتي بأنه مغامرة تتسم في كل تفاصيلها بالطابع العدواني الفاشي الذي ظل هؤلاء الزعماء ينددون به سنين طويلة . وهو لا يقتصر في نقده لحكام روسيا على هذه المناسبة وحدها بل أنه يتهمهم أيضاً بأنهم اعتمدوا أكثر مما ينبغي في حكمهم ومحافظتهم على سلطتهم على أجهزة البوليس السري حتى أصبحت هذه الأجهزة دولة داخل الدولة ، ولو أنه يلتمس لهم في ذلك بعض العذر من الظروف المحيطة بهم ومن كونهم عاشوا عيشة المتآمرين الشردين ، في ضراع دائم مع هذه الأجهزة نفسها عندما كانت تحت سيطرة حكام روسيا السابقين مما جعلهم ينجحون إلى إقامة حكم

دكتاتورى مطلق عند ما استولوا على السلطة والقضاء على كل مظهر من مظاهر الديمقراطية .

ويقول لاسكى فى هذا الصدد إن ديكتاتورية البروليتاريا التى نادى بها ماركس تحولت عند التطبيق العملى إلى ديكتاتورية الحزب الشيوعى الذى يسيطر عليه حفنة من الزعماء أو ، فى معظم الأحيان ، فرد واحد . وهنا يصف المؤلف ديكتاتورية ستالين فينعتها بأبشع ما يوصف به حكم من مصادرة للحريات وأحكام بالإعدام بالجملة دون محاكمة ونفى وتشريد لكل مخالف فى رأى وتزوير فى الانتخابات ورقابة صارمة على كل ما يكتب أو يقال وإثارة الأبناء ضد الآباء وانتشار الخوف بصورة لم يسبق لها مثيل . وهو يقول إنه لا يستطيع أن يجد مبررا يستسيغه العقل لمثل هذا الاضطهاد الفظيع أو دفاعاً عنه ، اللهم إلا على أساس أن حكام روسيا الشيوعية لا يخططون ، وهو ما لا يسلم به عاقل .

ورغم ما عرف عن لاسكى من ميول شيوعية فإن هذا الجزء من كتابه يعد عريضة اتهام قاسية من أقوى ما كتب فى هذا الصدد حتى بدا أشد أعداء النظام الشيوعى هجوما عليه ، ولعل لاسكى لم يهاجم وضعا أو نظاما بهذه الشدة إلا عند ما يتعرض للحديث عن الفاشية التى اشتهر بعدائه الشديد لها .

ويسوقنا ذلك إلى الحديث عن الفصل الثالث من الكتاب الذى خصصه المؤلف للفاشية تحت عنوان « معنى الفاشية » . ويعتبر لاسكى الفاشية العدو الحقيقى للجنس البشرى فى العصر الحاضر ، وأن هزيمتها أصبحت ضرورة تاريخية بالنسبة للطبقة العاملة لأنها تمثل أبشع وسيلة لجأت إليها الطبقات المتميزة لخنق الديمقراطية السياسية التى أصبح من الواضح أنها ستؤدى حتما ، مع ما يترتب عليها من اتساع فى القاعدة العددية للقوة السياسية ، إلى القضاء على جوهر النظام الرأسمالى وهو سيطرة فئة قليلة تملك وسائل الإنتاج على مصائر المجتمع كله .

ويفسر ذلك بأن المستفيدين من الأوضاع القائمة فى ظل النظام الرأسمالى لا يقفون

عند حد في دفاعهم عما يعتقدون أنه مصلحتهم الحقيقية ، بل وكيانهم نفسه ، مستعملين في ذلك كل الأسلحة بما فيها التعاون مع بعض النازيين الذين لا ييغون سوى الحصول على المكاسب لأنفسهم عن طريق الاستيلاء على القوة في المجتمع ، ومن هنا تنبثق الفاشية وتترعرع ثم يشتد ساعدها وتنجح في الحصول على القوة التي تبغيها . ويطلق لاسكى على هذه المحاولة ، وعلى محاولات أخرى تلجأ إليها الرأسمالية في محاولة إيقاف التغيير الحتمي المنشود ، اسم الثورة المضادة . فالفاشية في نظره صورة من صور الثورة المضادة التي تهدف بها الطبقة الرأسمالية إلى أقلمة المجتمع الرأسمالي - مع الاحتفاظ بجوهره - لظروف الأساليب الفنية الحديثة والسوق العالمى وتقسيم العمل . فهي رأسمالية نبذت أصولها التحررية التقليدية بعد أن تأكدت بالتجربة من اتجاه الأحداث أن الفكرة التحررية ، سواء في المجال الاقتصادى أو السياسى أو الاجتماعى ، لا بد أن تؤدي بطبيعتها إلى القضاء على الفكرة الرأسمالية .

ولعل لاسكى لم يتعرض للفاشية وأصولها وطبيعتها ونتائجها في مؤلف من مؤلفاته بالتفصيل والإحاطة التي عالج بها الموضوع في كتابه هذا . وهو يخلص من بحثه إلى أن الفاشية نظام مدمر بطبيعته ، فزعماؤه مضطرون إلى القضاء على جميع المراكز التي يمكن أن تكون مصدر خطر على خططهم أو تعترض سبيل تفردهم بالسلطة في المجتمع . فلا يقتصر الأمر في ذلك على الطبقة العاملة وحدها ، التي يعمل زعماء الفاشية على إثارة مشاعرها الوطنية واستمالتها بمختلف الوسائل والوعود حتى يضموها إلى صفهم ويلهوها عن المطالبة بمصالحها الحقيقية ثم لا يلبثوا أن يسيطروا عليها تماما ويستغلوها في صراعهم ضد القوى الأخرى داخل المجتمع وخارجه ؛ ولا على فئة المفكرين التي يحاول النظام الفاشى أن يخضعها أيضا لمقتضيات شمولية حتى ولو أدى الأمر إلى قتل البحث العلمى الحر الذى قد لا تتفق نتائجه مع ادعاءاته ، بل إن طبقة الرأسماليين نفسها - التي أتت بهذا النظام إلى الحكم ليساعدها في كفاحها ضد الطبقات العاملة - سرعان

ما يأتى دورها وينشب فيها النظام مخالفه حيث إنه بطبيعته يقوم على التوسع العدوانى الذى لا بد أن يؤدى إلى الحرب ، أو إلى حالة مستمرة شبيهة بالحرب ، مما يتطلب تدخلا بل وإشرافا كاملا من أجهزة الدولة على جميع مجالات النشاط الاقتصادى بصورة تنقل القوة الاقتصادية ، والسياسية بطبيعة الحال، إلى جهاز يروقراطى يخضع للإشراف المباشر لزعماء الحزب . وهكذا فالفاشية فى نظر لاسكى المدو الأول الذى ينبى أن تتضافر جميع الجهود فى القضاء عليه وعلى الأسباب التى أدت إلى قيامه . ولذلك نجده فى هذا الكتاب يدافع عن اشتراك حزب العمال البريطانى فى وزارة تشرشل الائتلافية إبان الحرب ، مع ما فى ذلك من تضحية ببعض المبادئ الرئيسية للحزب، على أساس أن هتلر وما يمثله هتلر هما العقبة الأساسية فى إتمام التغيير الثورى الذى يدعو إليه ويعتبره ضرورة حتمية يفرضها الواقع التاريخى وائتمطور الحادث ، أو الذى لا بد أن يحدث ، فى علاقات الإنتاج .

ويخصص لاسكى بعد ذلك الفصول الثلاثة التالية من كتابه للحديث عن الديمقراطية وانظروف الداخلية والخارجية التى يتطلبها بقاءها وحسن أدائها لوظيفتها . ويجدر بنا هنا ، قبل الكلام عن مفهوم لاسكى عن الديمقراطية وظروفها ، أن نشير إلى أنه كان قبل الحرب ، خاصة بين سنة ١٩٣٣ وسنة ١٩٣٩ ، قد دأب على مهاجمة الديمقراطية الإنجليزية بوصفها قناعا تخفى وراءه سيطرة المصالح الرأسمالية ؛ ولكننا سنجد فى هذا الكتاب ، الذى كتبه فى السنين الأولى للحرب وبعد أن أصبحت إنجلترا مهددة فى كيانها نفسه ، يدافع بشدة عن القيم الديمقراطية التى تشبعت بها روح الشعب الإنجليزى ويعتبر الدفاع عن هذه القيم واجبا يستحق ، كما ذكرنا ، تضحية من جانب العمال ببعض مبادئهم الأساسية .

ومع ذلك فإن لاسكى لا يفوته أن يذكرنا فى كتابه هذا بأن نظم الديمقراطية الرأسمالية لا تكفل إلا حرية سلبية ، وأن وظيفتها الأساسية هى حماية حقوق فئة

واحدة من الفئات التي يتكوّن منها المجتمع وهي الفئة التي تهبط لها سيطرتها الاقتصادية أسباب التحكم في القوة السياسية .

ويرجع لاسكي أسباب إخفاق الديمقراطية ، في نظره ، إلى عاملين أساسيين . أولهما إصرار بعض الفئات التي تتمتع بامتيازات معينة على تجميد الديمقراطية السياسية عند النقطة التي لا تهدد فيها الأسس الاقتصادية للمجتمع القائم ، ولما كان هذا التجميد يتنافى مع ما تتطلبه المحافظة على الديمقراطية نفسها من قدرة الغالبية العديدة في المجتمع على إحداث أى تغيير ، مهما كان جذرياً ، بوسائل دستورية سلمية فإن إصرار هذه الفئات على تجميد الديمقراطية السياسية عند نقطة معينة هو في الواقع قضاء عليها .

والعامل الثاني الذي يعزو إليه لاسكي إخفاق الديمقراطية ، وهو منبثق من الأول ، أن اليسار بدأ يندفع في اعتقاده بأن إيمان الرأسماليين بالأساليب الديمقراطية سينهار بمجرد أن تتعرض مصالحه للخطر ، ومن ثم سيلجأ إلى وسائل فيها القضاء على الديمقراطية الحققة دفاعاً عن هذه المصالح . وقد نجم عن ذلك جو من الشك في الديمقراطية وفي قدرتها على تحقيق وظيفتها بحيث أصبح الموقف مهياً بشكل واضح للثورة من ناحية وللثورة المضادة من ناحية أخرى . ومن ثم قامت أصوات بتفكير للديمقراطية باعتبارها لا تؤدي إلى شيء سوى تهيئة المسرح للصراع بين الأغنياء والفقراء . بيد أن لاسكي يخالف هؤلاء جميعاً في الرأي ويقول إن العيب في الواقع ليس نقصاً في الديمقراطية السياسية نفسها ولكن في أنها غير مصحوبة بديمقراطية اقتصادية موازية لها بحيث لا يختل توازن المجتمع وأن ذلك ناجم عن عدم إدراك لمفهوم الديمقراطية على حقيقته وعن ظروف الواقع التاريخي الذي تطبق فيه . فالمجتمع الديمقراطي في نظره هو نتاج العلاقات الروحية بين أعضائه بقدر ما هو نتاج صورة الحكم فيه ، وأن الاثنين - العلاقات الروحية بين أفراد المجتمع وصورة الحكم فيه - متأثران إلى أبعد حد بالأوضاع الاقتصادية القائمة ؛ ومن ثم فإن الأمر يتطلب وحدة في الأهداف العظمى لدى جميع قطاعات المجتمع كما يتطلب أن تكون مسئولية الحكم

مسئولية حقيقية خاضعة للرقابة المستمرة من أفراد المجتمع دون حاجة إلى الالتجاء للقوة. ويقول لاسكى إن السبيل إلى ذلك لا يتأتى إلا بواسطة نظام يقوم على حرية كاملة ، غير متأثرة بالأوضاع الاقتصادية ، في اختيار الحكام وتغييرهم بطريقة دستورية منظمة. وعندما ينتقل لاسكى إلى الكلام عن الظروف الدولية التي لا بد من توافرها حتى تؤدي الديمقراطية مهمتها يبدأ بأن يذكرنا بأن الانتصار في الحرب يعنى هزيمة هتلر ولكنه لا يعنى هزيمة الظروف التي جعلت وجود هتلر ممكنا . ومن ثم كان لا بد من تنظيم شامل على الصعيد الدولي بحيث تقوم الدول بمجهود موحد لتحرير قوى الإنتاج في العالم؛ بيد أنه يؤكد أن ذلك لا يمكن أن يتم بصورة حقيقية وحاسمة وفعالة إلا إذا عدلنا علاقات الإنتاج داخل كل دولة تعديلا جذريا .

فتعديل الأوضاع الاقتصادية في نظره هو العامل الأساسي في تهيئة الظروف الداخلية والخارجية اللازمة للديموقراطية الحقة ، ويقول إن فشل مؤتمرات نزع السلاح العديدة التي عقدت بعد الحرب الأولى دليل واضح على أن الرأسمالية في مرحلتها الامبريالية لا يمكن أن تستغنى عن الحرب كوسيلة من وسائل التعبير عن نفسها !!

ويشير لاسكى إلى أن هذا التنظيم الشامل في المجال الدولي يتطلب إنشاء هيئة تضم جميع الأمم ، المنتصرة في الحرب والمهزومة على السواء ، على أن يتجنب بعد الحرب مأساة فرسايل ومعاملة الشعوب المهزومة كما لو كانت كلها عصابات من المجرمين . وينبغي أن تكرر هذه الهيئة جزءا كبيرا من إمكانياتها وجهودها لتحقيق هدفين أساسيين ؛ أولهما إدخال المدنية الحديثة في المناطق المتخلفة من العالم والثاني تصفية الاستعمار تماما بمظهره السياسي والاقتصادي معا .

فإذا تم ذلك وتوطدت دعائم الهيئة الدولية زالت من العالم إلى حد كبير تلك الظروف التي أثارت الحرب عامدة لصالح الثورة المضادة ، وعندئذ سيظهر حتما أن الرأسمالية الفردية التي تمخض عنها الاقتصاد التقليدي غير ذات موضوع .

ويخصص المؤلف الفصل الأخير من كتابه للديموقراطية في ظل التخطيط باعتبار أن هذا الموضوع هو مشكلة الساعة . فمن رأيه أن الأمر الذي لا شك فيه ، أننا عند نهاية الحرب سنكون قد انتقلنا إلى عهد المجتمع الخاضع للتخطيط الشامل ، وأن ذلك يقتضي استعدادا خاصا وتحديداً دقيقا لأهدافنا من التخطيط لأن النازية أثبتت أن التخطيط يمكن أن يوجه في خدمة مصلحة فئة قليلة ، خاصة وأن الأساليب الفنية الحديثة في التسليح والحكم تجعل في وسع هذه الفئة أن تسيطر تماما على الكثرة . وهو يذكرنا بأن التخطيط الشامل للمجتمع قد يقوم بسهولة على التضحية بحرية الفرد .

ويحاول لاسكي بعد ذلك أن يحدد المجالات الرئيسية للتخطيط بأنها الميادين التي يجب أن تخضع للسيطرة المباشرة للدولة ، وهي الائتمان والأرض والتصدير والاستيراد ووسائل النقل والوقود ومصادر القوى . وينفى لاسكي ما يقوله خصوم التخطيط من أنه يتعارض بطبيعته مع الحرية ويدمر شخصية الفرد ؛ ويقول إن أصحاب هذا الرأي ينسون أن جوهر الحرية نفسه في حاجة إلى إعادة تحديد كلما ظهرت مجموعة جديدة من الظروف التاريخية .

كما يشير إلى بعض الاعتراضات الأخرى التي تساق ضد تدخل الدولة عن طريق التخطيط وإشرافها على المشروعات الاقتصادية الكبرى مما يؤدي إلى سيطرة حفنة من البيروقراطيين الذين قد يستغلون وضعهم للحصول على امتيازات على حساب المجتمع ، وكأننا استبدلنا سيطرة رأس المال بسيطرة البيروقراطية ، بالإضافة إلى أن البيروقراطي ، الذي يتصرف في رأس مال لا يملكه سينقصه الحافز الرئيسي لإتقان عمله ويقتل روح الابتكار لديه . ويحاول لاسكي أن يفند كلا من هذه الاعتراضات على أساس المقارنة بما حدث فعلا في التجربة الاشتراكية في روسيا . ورغم أنه يهزأ بهذه المخاوف باعتبارها مجرد دعاية من جانب الطبقات التي تتمتع في الوقت الحاضر بامتيازات ليست من حقها ، إلا أنه يعترف بالحاجة إلى ضمانات ضد خطر أن يفقد

المجتمع في ظل التخطيط الشامل ، عاداته الديمقراطية ويقع فريسة لطمع البيروقراطيين في السلطة . ولذلك نراه يطالب باللامركزية الكاملة في الحكم ويذهب إلى أننا إذا لم ندرك أنها سر الحرية فسندفع الثمن غاليا من حريتنا وأمننا .

ويختتم المؤلف كتابه بأن العالم غامر مرتين خلال هذا القرن بأرواح الملايين من شبابه في سبيل مثل عليا جميلة وأملا في تغيير الأوضاع التي تئن البشرية تحت وطأتها ولكن في المرة الأولى أخفق تماما في تحقيق هذه الآمال وراحت أرواح الملايين هباء . فلعننا لا نفعل نفس الشيء مرة أخرى ونتعظ بالتجربة الماضية .

وأخيراً أود أن أضيف أنه من الواضح أن لاسكى وإن كان قد نجح في التخلص تماما من تدريجيته الغاية بتأثير الماركسية ، إلا أنه لم يستطع أن يوائم بين إيمانه بالحرية وبشخصية الفرد وبين الماركسية التي اعتنقها وظل يدافع عنها طوال الفترة الأخيرة من حياته ؛ وتبدو جميع المحاولات التي بذلها في التوفيق بين هذين الأمرين مفتعلة وغير ذات جدوى ؛ ولعلهما - أي الحرية والمحافظة على شخصية الفرد من ناحية والماركسية من ناحية أخرى - أمران لا يتفقان .

عبد الكريم أحمد